القسم الأول

ما الفلسفة ؟

الفصل الأول

محاولة تعريف الفلسفة

تمهيد :

البدء بتعريف العلم خطوة أولى جرى عليها المؤلفون فى العلوم المختلفة. ولكن البحث فى التعريف مهمة شاقة عسيرة أدعى أن تكون الخطوة الأخيرة من أن تكون الخطوة الأولى ، لأن الإنسان لا يصل إلى تحديد موضوع دراسته وتعريفه تعريفاً جامعاً مانعاً إلا بعد أن يكون قد ألم بمختلف ميادينه ، ولمس المشكلات التى يعالجها. هذا فضلاً عن أن التعريف الذى يقدمه المؤلف للعلم الذى يبحث فيه يظل دائماً صيغة جوفاء بعيدة عن روح القارئ ، ولا يمتزج أبداً بكيانه ، ويظل العلم موضوع التعريف تبعاً لذلك فى نظر القارئ أو الطالب يمثل بناءً من المعرفة لا صلة بينه وبين الحياة التى يحياها ، ولا تلبث الفجوة بين هذا العلم والحياة فى الاتساع ، ومن ثمّ تفشل جميع المحاولات التى يبذلها بعد ذلك لتضييقها.

وإذا كان هذا الكلام يصدق مرة على العلوم بوجه عام وعلى التعريفات التى يقدمها المؤلفون لها ، فإنه يصدق ألف مرة على الفلسفة ، فلو سأل شخص : ما هى الرياضيات ؟ فإننا نستطيع أن نعطيه تعريفاً قاموسياً ، فنقول ، على سبيل المثال ، أنها علم العدد ، هذا التعريف لا يشكل فى ذاته عبارة يمكن الاختلاف عليها ، وهو فضلاً عن ذلك عبارة يسهل على السائل فهمها ، حتى لو كان جاهلاً بالرياضيات. وعلى هذا النحو ذاته يمكن تقديم تعريفات لأى ميدان توجد فيه مجموعة محددة من المعلومات. أما الفلسفة فيستحيل تعريفها على هذا النحو ، ذلك لأن أى تعريف لها يثير الجدل والخلاف ، وينطوى فى ذاته على موقف معين من الفلسفة .

إننا حين نشرع فى وضع تعريف للفلسفة ، سرعان ما تعترضنا

الصعوبات ، ذلك لأن الفلسفة هى عملية أو نشاط أكثر من كونها موضوعاً أو بناءً للمعرفة ، وتعريف النشاط أصعب دائماً من تعريف الكيان أو الشيء المحدد المعالم. ويحاول البعض أحياناً تجنب هذه الصعوبة بالقول إنه لا يوجد شيء اسمه الفلسفة ، بل يوجد فقط تفلسف ، وهو النشاط العقلى الواعى الذى يحاول به الناس كشف طبيعة الفكر ، وطبيعة الواقع ، ومعنى التجربة الإنسانية. وقد يذهب أناس آخرون إلى القول بأنه لا توجد ، على أحسن الفروض ، إلاّ فلسفات ، أى طرق متعددة للنظر إلى العالم ، يصوغها مفكرون يعيشون فى مدنيات كثيرة مختلفة. هذه الفلسفات تتباين وكثيراً ما تتناقض ، ومن ثمَ كان من الممتنع أن ننظر إلى الفلسفة على أنها ميدان أو بناء موحد للمعرفة. وفضلاً عن ذلك ، فلا مفر لكل مدرسة وكل مفكر فرد من تعريف الموضوع بطريقة مختلفة ، فيؤدى هذا التعريف ذاته إلى إغفال الكثير مما يود ممثل المدرسة المضادة أن يعمل له حساباً.

ولابد لنا من تأكيد هذه النقطة الأخيرة : إذ إنها شيء قد يجده المبتدئ فى دراسة الفلسفة عسير الفهم. فهو قد يدرك أن إجابتك عن أى سؤال فلسفى معين يتوقف على المدرسة الفكرية التى تنتمى إليها ، ولكنه لا يستطيع أن يفهم كيف أن تعريف الفلسفة فى ذاتها يتوقف أيضاً – إلى حد ما – على المدرسة الفلسفية التى ينتمى إليها القائم بالتعريف. الواقع أننا عندما نقارن بين فلسفة ينصب اهتمامها الأكبر على المسائل الميتافيزيقية (كالمثالية) وبين مدرسة أخرى يتركز اهتمامها على نظريات الحقيقة والقابلية للتحقيق (كالوضعية المنطقية) ، فإنَّا نرى عندئذ أن هذه النتيجة تغدو أمراً لا مفر منه ، ذلك لأن المدرسة الأولى لابد أن تُعرِّف الفلسفة على أساس أنها جهد منظم لإثبات الطابع المنطقى للواقع ، على حين أن الثانية، التى ترى أن لفظ "الواقع" Reality لا معنى له ، وترى فى أى جهد يُبْذَل من أجل إثبات طابعه

مضيعة للوقت ، تُعَرِّف الفلسفة على أساس التحليل المنطقى للغة والمعنى. وهكذا الحال فى القائمة الكاملة للمدارس الفكرية الكثيرة ، فكل منها تُبْرِز فى تعريفها ما تهتم به فى نشاطها التأملى أو التحليلى ، وكل منها تستبعد بدورها ما لا يهمها ، أو ما لا ترى فى نفسها الكفاية لمعالجته .

فإذا ما انحزنا مؤقتاً إلى صف أولئك الذين يفضلون النظر إلى الفلسفة بوصفها نشاطًا عقليًا ، لكانت مشكلتنا هى أن نقرر ما الذى يفعله كل هؤلاء المفكرين المتعددين ، المتعارضين أحياناً ، عندما يتفلسفون. فما هو العنصر المشترك بين عملياتهم العقلية ؟ أى باختصار ، ما الذى يميز التفكير الفلسفى عن الأنواع الأخرى للتفكير ؟ وما الذى يفعله الفيلسوف ويختلف فيه عما يفعله العالِم أو رجل الدين ، وربما الفنان ذاته ؟ وما هى أوجه نشاطه العقلى الفريدة والمميزة له ؟ وسوف تكون مهمتنا فى بعض الفصول التالية الإجابة عن مثل هذه الأسئلة .

إن الناس لا يتفقون على شىء قدر اتفاقهم على الشك فى الفلسفة وقيمتها وجدواها. فالفيلسوف عندهم رجل سفسطائى ثرثار ، أو ملازم لبرجه العاجى بعيداً عن الواقع العملى الملموس. وإذا أحسنوا به الظن فهو متخصص فى المجرد والعام ، بالأحرى مصاب بالتجريد والتعميم، باحث عن الكل والوحدة والمعنى حيث لا ظل لها ولا أثر ، متجه ببصره وبصيرته إلى "ما فوق" و "ما وراء" وما فى الباطن والأعماق حيث لا توجد إلا المدركات الظاهرة ، والأشياء الكثيرة ، والموجودات الحسية المتعددة .

والواقع أن أصحاب العقلية غير الفلسفية كانوا ، منذ أقدم العصور يتخذون موقفًا عجيبًا ، وغير متسق ، من الفلسفة بوجه عام ، فهم من جهة يميلون إلى التعامل مع الفلاسفة بتسامح مشوب بالرقة والعطف ، بوصفهم

حمقى لا ضرر منهم ، وأناسًا ذوى أطوار غريبة ، يسيرون وقد ارتفعت رؤوسهم فى السحاب ، ويطرحون أسئلة سخيفة لا صلة لها بالهموم الحقيقية للناس ، ولا يكترثون بالأمور التى ينبغى أن يهتم بها المواطنون العقلاء ، غير أن التفكير الفلسفى يمكن أن يكون له ، من جهة ، تأثير يزعزع بعمق كل ما هو سائد من أعراف وتقاليد ، وفى هذه الحالة يُنْظَر إلى الفيلسوف بعين الشك على أنه شخص خارج عن العرف المألوف ، يعكر صفو التقاليد والأعراف ، ولا يبدى موافقة غير مشروطة على العادات والآراء التى تبدو صالحة فى نظر سواه من الناس. ذلك لأن أولئك الذين لم يعتادوا النقد يشعرون بانعدام الأمان عندما يناقش أحد معتقداتهم التى يعتزون بها ، ويكون رد فعلهم مصحوبًا بالكراهية والعداء.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإننا لا نكاد نعرف اسماً لفرع من فروع المعرفة قد أصابه ما أصاب اسم الفلسفة من عداء وتندر واستنكار عند الكثرة الغالبة من الناس. إن الجهل بمعنى الفلسفة جعل هذا اللفظ يرتبط فى أذهان جمهور العامة بمفاهيم هى أبعد ما تكون عن الروح الحقة للفلسفة، فلقد وقر فى ذهن عامة الناس أن ما هو فلسفة ليس سوى خليط من حجج غامضة يكتنفها ضباب دون أن يكون لها معنى مفهوم. وبعبارة موجزة يمكننا القول إن الفلسفة فى بلادنا سيئة السمعة. وهذا أمر ليس بمستغرب فى مجتمعات تتخذ موقفاً عدائياً من العقل ، وتطمئن أقصى غايات الطمأنينة للخرافات. وتحليل هذه البنية العقلية السائدة فى مجتمعنا ومعرفة عللها وطرق إصلاحها يحتاج لبحث مستقل ، نعكف الآن على القيام به ، وقد يظهر فى وقت قريب إن شاء الله.

الفلسفة هى محبة الحكمة :

المهم إننا الآن بصدد محاولة تقديم تعريف للفلسفة ، والأفضل أن نبدأ من البداية ، أى نبدأ من الأصل اللغوى للكلمة. إن الفلسفة كلمة يونانية قديمة مركبة من مقطعين "فيلو" fileo ومعناه "محبة" أو "سعى إلى" I love, I strive و "سوفيا" Sophia ومعناه "حكمة" أو "معرفة" wisdom, knowledge. ومن ثمَّ فإن الفلسفة وفقاً لمعناها الاشتقاقى هى : "محبة الحكمة" أو "السعى إلى المعرفة". ويقال إن فيثاغورس Pythagoras (٥٧٢ – ٤٩٧ ق.م) أطلق كلمة "محبى الحكمة" على أولئك الذين اقتصروا على دراسة طبيعة الأشياء ، وتركوا ما عدا ذلك من ألوان المعرفة ، ولما شعروا بقصورهم وحدود معرفتهم لم يدعوا لأنفسهم اسم "الحكماء". ولا أطلقوا على معرفتهم اسم "الحكمة". وإنما هم سعوا إليها ، وحاولوا قدر الطاقة بلوغها. وقبل فيثاغورس كان اسم "الحكماء" يطلق على الذين يهتمون بمعرفة الأشياء الإلهية والإنسانية وأسبابها .

يرى البعض أن نسبة وضع هذه الكلمة إلى فيثاغورس أمر مشكوك فيه ، لما طُبِعَ عليه من ادعاء لا يتفق مع أن يتواضع فيسمى نفسه "محباً للحكمة" ، لا حكيماً. ولهذا يُرَجِح هؤلاء أن يكون سقراط Socrates (٤٧٠ – ٣٩٩ ق.م) أول من استعملها. وأفلاطون يستعملها ليميز حب الحكمة عند سقراط من ادعاء الحكمة عند السوفسطائيين.

ومهما يكن من شيء فإن تعريف الفلسفة بأنها "محبة الحكمة" يؤكد أمرين :

أولهما إننا لا "نملك" الحكمة ، كما أن افتقارنا إليها ليس مسألة مؤقتة أو عارضة ، فمن طبيعة الفلسفة أن تسعى فى طلب الحكمة التى تظل ممتنعة عليها (نقول ممتنعة ولا نقول مستحيلة ، إذ لابد من وجود علاقة بينهما ، حتى يكون ثمَّة معنى للسعى والشوق والحب) ، هذه الحكمة هى موضوع الفلسفة.

ولكنه موضوع تسعى إليه الفلسفة ولا تملكه. إن الحكمة تُطْلَب لذاتها ، ولهذا لا يمكن أن يملكها الإنسان تماماً. ربما كان فى وسعنا أن "نملك" الحقائق التى تزودنا بها العلوم الجزئية ، ولكن هذه الحقائق بطبيعتها "وسائل" و "أدوات" ، ولا يمكن أن نكتفى بها تماماً بحيث تُطْلَب لذاتها ، أما الشيء الوحيد الذى يمكن أن نكتفى به ونطلبه لذاته – وهو الحكمة – فنحن لا نصل إليه إلا على سبيل الأمل والرجاء ، لا على سبيل التملك.

ومن طبيعة الفلسفة إذن ألا "تملك" موضوعها إلا عن طريق السعى إليه والاشتياق لطلبه (أى ألا تملكه أبداً). قد يبدو هذا أمراً بديهياً لكل من يفكر فى طبيعة الفلسفة وتطورها التاريخى. غير أنه ليس بالوضوح والبداهة التى نتصورها ، ولم ينعقد عليه اجماع الفلاسفة (فالاختلاف بينهم حول تعريفها ومنهجها ومضمونها وغايتها شيء مستمد من طبيعتها) ، ها هو "هيجل" Hegel, G. W. F. (١٧٧٠ – ١٨٣١) يخالف المعنى الذى أشرنا إليه ويقول فى مقدمة ظاهريات الروح :

> "إن الأمر الذى عقدت عليه العزم هو المشاركة بجهدى فى أن تقترب الفلسفة من هدفها ، وتتمكن من طرح الاسم الذى توصف به وهو (حب العلم) من أجل أن تصبح علماً حقيقياً ".

ولا شك أن الهدف الذى وضعه "هيجل" لنفسه يفوق القدرة البشرية ، وأن الفلاسفة الذين شاركوه طموحه فى جعل الفلسفة علماً شاملاً دقيقاً لم يحالفهم التوفيق الكامل (مثل أفلاطون وليبنتس من قبله، وهوسرل وبعض المناطقة الوضعيين من بعده). لقد ساروا جميعاً فى طريق مسدود ، إذ أحسوا قليلاً أو كثيراً بالشعور بالنقص تجاه العلوم الدقيقة. وصوَّر لهم الوهم أن الفلسفة يمكن أن تتطور كما تتطور تلك العلوم ، على حين أنها بطبيعتها لا يمكن ، ولا

يجوز لها ، أن تحقق مثل هذا التطور .

والأمر الثانى الذى يؤكده تعريف الفلسفة بأنها "محبة الحكمة" هو المقابلة بين الحكمة الإلهية ومحبة الحكمة "البشرية". فالإنسان لا يسعى فى طلب الحكمة أياً كانت ، وإنما يسعى إلى الحكمة الإلهية. ولهذا نجد فلاسفة العصر الوسيط من إسلاميين ومسيحيين يتابعون "أرسطو" Aristotle (٣٨٤ – ٣٢٢ ق. م) فى تعريفه للفلسفة بأنها "العلم الإلهى" ، لأنها تسعى لطلب الحكمة التى لا يملكها إلا الله ، أو بأنها "التشبه بالله بقدر الطاقة" ، كما يُعرفها أفلاطون. وهكذا تعجز الفلسفة – لأنها شىء بشرى – عن إدراك موضوعها والإحاطة به. وهى بهذا تضع الحد الفاصل بين الإنسان وبين الله ، إذ لو أدرك إنسان كل الحكمة زالت عنه صفة الإنسان.

غير أن تعريف الفلسفة بأنها محبة الحكمة ، لا يشفى غليلنا فى الوقوف على معنى الفلسفة وفى تقريبها إلى الأذهان. إذ إن الذى لا يعرف معنى الفلسفة لن يزداد معرفة بموضوعها إذا قيل له إن الفلسفة فى تعريفها تعنى "محبة الحكمة". وسيجد نفسه مسوقاً مرة أخرى إلى أن يسأل ما هى الحكمة التى تُعرَّف بها الفلسفة ؟ وما المقصود بها ؟ وسيشعر قبل هذا وذاك أن تعريف الفلسفة بالحكمة أو بمحبتها لم يقرِّب الفلسفة من حياته .

وفضلاً عن ذلك ، فإن تعريف الفلسفة بأنها "السعى إلى اكتساب المعرفة" قد يؤدى إلى إدخال كل الباحثين العلميين فى زمرة الفلاسفة ، ومن ثمّ فإن الأصل الاشتقاقى للفظ "الفلسفة" قد يشير إلى المعنى نفسه الذى يشير إليه لفظ "علم" Science. غير أنه بمرور الوقت ومع نمو المعرفة ، أصبح التخصص فى العلوم أمراً ضرورياً ، ولم يعد فى وسع فرد واحد الإحاطة بكل صنوف المعارف. وبدأت العلوم المختلفة تستقل عن الفلسفة ، وأصبح لكل علم

اسماً خاصاً به .

وإذا نظرنا إلى **المعنى الاصطلاحى للفلسفة** ، فسنجد أنه – وكما سبق أن ذكرنا – يختلف باختلاف المذاهب والعصور. فقد حصر "سقراط" مثلاً مهمة الفلسفة فى دراسة الحياة الأخلاقية ، وذهب إلى أن الحياة التى لا يتم فحصها غير جديرة بأن يحياها الإنسان ، كما ذهب "شيشرون" إلى أن الفلسفة هى المدبرة لحياة الإنسان بما تقدمه له من قواعد السلوك وتعريفه معانى الحق والواجب ، والخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، وما ينبغى أن يتحلى به أو يتخلى عنه بحيث يسلك مع أقرانه من البشر المسلك الذى يلائم قواعد الخلق القويم والسلوك المستقيم.

غير أن هذا المعنى الضيق الذى يحصر الفلسفة فى نطاق الأخلاق ، اتسع عند أفلاطون وأرسطو بحيث أصبحت الفلسفة دراسة للكون وكل مناحى الحياة الإنسانية ، ومحاولة للوصول إلى الحقيقة فى كل مجال من هذه المجالات ، بغض النظر عن المنافع العملية المترتبة على معرفة الحقيقة. ثم اهتمت الفلسفة فى العصور الوسطى بالبرهنة على صحة القضايا الدينية ، كوجود الله ، وخلود النفس .... إلخ ، كما حاولت التوفيق بين العقل والنقل أو الحكمة والشريعة.

ومع نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهرت نزعة عملية واضحة فى الفلسفة المعاصرة – وبخاصةٍ فى الفكر الفلسفى الأمريكى – وهى التى سميت باسم المذهب العملى أو "البراجماتية" Pragmatism التى رأى أحد أعلامها – "وليم جيمس" (١٨٤٢ – ١٩١٠) – أن هدف الفلسفة هو تحقيق منفعة عملية ، أى إنها ليست بحثاً فى مشكلات نظرية وقضايا تأملية ، بل هى التفكير على نحو يحقق للإنسان النجاح فى

حياته العملية. وكذلك ذهب "كارل ماركس" Karl Marx (١٨١٨ – ١٨٨٣) إلى القول بأن الفلاسفة قد دأبوا على تفسير العالَم بطرق شتى ، ولكن مهمة الفلسفة – فى اعتقاده – هى العمل على تغيير العالَم ، وتعديل النظم القائمة ، وتخليص الإنسان من الظلم وطغيان الخرافات. كما ظهرت إلى جانب البراجماتية والماركسية مذاهب فلسفية أخرى كثيرة ، كالفلسفة التحليلية ، والوضعية المنطقية ، والوجودية وفلسفة الظاهريات ... إلخ. وكانت جميعها تسعى إلى تعريف الفلسفة تعريفًا خاصًا ، فكانت الفلسفة الوجودية مثلاً تستهدف إنقاذ الفرد من طغيان الجماعة ، وسيطرة التقاليد ، واهتمت بموضوعات مستمدة من ذات الفرد البشرى : كالحرية ، واتخاذ القرار ، والمسئولية ، والتناهى والإثم ، والقلق ، والموت ، والذات الحقة والذات الزائفة ، والحب ، والجنس ، والموت والألم ... إلخ. لأن هذه الموضوعات فى نظرهم هى التى تشكل جوهر الموجود البشرى ، وتميزه عن غيره من الموجودات الأخرى ، وهكذا كانت أعظم الموضوعات التى اهتمت بها الفلسفة الوجودية وأكثرها تألقًا هى "الحياة العاطفية للإنسان".

والجدير بالتنويه أن لكل إنسان منا فلسفته الخاصة ، أراد ذلك أم لم يرد ، وذلك يعنى أن لكل منا مسلكه الخاص فى الحياة ، ونظرته إلى الكون والناس وقيمه الخاصة ، وتقديره للأمور ، وزاوية معينة يحكم منها على الأحداث. وليست الفلسفة بصفة عامة سوى هذه النظرة الشاملة ، والفارق بين نظرة الفيلسوف ونظرة رجل الشارع (الإنسان العادى) ، أن نظرة الفيلسوف أشد عمقًا وترابطًا وتنظيمًا ، كما أن الفيلسوف يعبر عن آرائه بلغة اصطلاحية خاصة يستند فيها إلى "النقد".

النقد هو جوهر الفلسفة :

لو كان علينا أن نختار لفظاً واحداً نصف به وظيفة الفلسفة و"روحها"، لكان هذا اللفظ هو أنها نقدية. غير أن من الواجب ألا يسيء المرء فهم هذا اللفظ ، إذ إن له فى الحديث اليومى عادةً معنى أضيق من ذلك الذى نقصده. فعندما نقول فى حديثنا المعتاد ، إننا "ننتقد ذلك الشخص" ، نعنى عادةً أننا نجد فيه عيبًا. غير أن الفلسفة ليست "نقدية" بهذا المعنى.

فالنقد فى الفلسفة لا يعنى أبدًا إدانة شيء أو صب اللعنات على هذا الوضع أو ذاك ، ليس هو مجرد الرفض والنفى ، ولا يصح أن يتحول من "نقد" إلى "نقض" ، وليس هو الاتهام والتطاول ، ولا الصياح والصراخ ، وإنما هو الجهد العقلى والعملى لعدم تقبل الأفكار وأساليب الفعل والسلوك والظروف الاجتماعية والتاريخية تقبلاً أعمى. النقد هو جهد يُبْذَل للتوفيق بين جوانب الحياة الاجتماعية وبين الأفكار والأهداف العامة للعصر ، وتمييز المظهر فيها من الجوهر ، والبحث فى أصول الأشياء والظواهر وجذورها وارتباطها بحقائق الواقع من حولها ، أى معرفتها معرفة حقة.

ولكن ما الذى تدرسه الفلسفة بطريقة نقدية ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ليست هينة إلى الحد الذى يتبادر إلى الذهن. ومع ذلك يمكن القول إن الفلسفة تنتقد بعضًا من أهم الاعتقادات التى يأخذ بها البشر وأوسعها انتشارًا ، كالاعتقاد مثلاً بأن الله موجود. وهناك مثل آخر هو الاعتقاد بأن ثمّة أفعالاً معينة ، كالوفاء بالوعد أو الولاء للوطن ، ينبغى علينا أن نقوم بها ، وأفعالاً أخرى ، كالكذب أو الغش فى الامتحانات ، تتصف بأنها خطأ من الوجهة الأخلاقية ، ومن الأمثلة الأخرى ، الاعتقاد أو الإيمان بأهداف أو "قيم" معينة للحياة البشرية ينبغى علينا أن نسعى إليها ، كالحصول على أكبر قدر يمكننا أن نناله من

اللذة أو العكس ، أى الزهد فى الحياة والتضحية بالنفس.

ولقد وُصِفَت الاعتقادات الدينية التى تنتقدها الفلسفة بأنها "هامة وواسعة الانتشار" معاً. ولا شك أن الأمثلة التى أوردناها تدل بوضوح على أن هذه الاعتقادات واسعة الانتشار بالفعل. فكل إنسان راشد تقريباً ، فى أية حضارة أو أى عصر تاريخى عاش فيه ، كان ولا يزال يأخذ بنوع معين من الاعتقاد فى كل هذه المسائل. ولو تريث القارئ لحظة ليفكر فى هذا الأمر، لتبين له أن هذا يصدق عليه هو ذاته أيضاً ، مهما كان من غموض اعتقاداته أو عدم تحدد معالمها على نحو قاطع.

على أننا لا نستطيع أن ندرك أهمية الاعتقادات التى تدرسها الفلسفة ، ما لم نبحث فى أهمية الاعتقادات بوجه عام. إن الاعتقادات ليست أصنافاً موضوعة على رفوف مخازننا العقلية ، تظل عادةً دون استخدام ، وإن كنا ننفض الغبار عنها أحياناً ونستخرجها من أماكنها – من أجل استخدامها فى جلسة مناقشة ودية مثلاً. بل إنها أهم من ذلك بكثير : إذ إنها تسيطر على مجرى حياتنا وتوجهه. فنحن نسلك دائماً على هدى اعتقاداتنا. والأمور التى نعتقد بصحتها عن العالَم وعن أنفسنا لها أهمية حاسمة فى اتخاذنا قراراً بأن نؤدى فعلاً معيناً بدلاً من فعل آخر ، وفى أن نستهدف غاية معينة بدلاً من غاية أخرى. واعتقاداتك عن نفسك تحدد اختيارك لميدان تخصصك فى الجامعة أو الكلية التى ترغب فى الالتحاق بها ، كما أن اعتقاداتك عن الآخرين تحدد اختيارك لصديقك الحميم من بين زملائك.

ومن هنا فإن موضوعات عظيمة الأهمية تتوقف على صحة اعتقاداتنا. ويمكن القول بوجه عام إن السلوك لن يكون مثمراً وناجحاً ما لم يكن مرتكزاً على اعتقادات موثوق منها. أما السلوك الذى يفتقر إلى استنارة الاعتقاد

الصحيح فلابد له أن يكون منحرفاً عقيماً : إذ يكون نتاجاً للخرافة، أو "التخمين" أو العادة الجامدة.

والاعتقادات التى تدرسها الفلسفة هى تلك التى تكمن وراء سلوكنا فى المجالات الرئيسية للتجربة البشرية. ففى حالة الأخلاق ، لا تهتم الفلسفة بقرار أخلاقي معين ، مثل : هل أكذب لأربح هذه الصفقة ؟ – بقدر ما تهتم بمبادئ الصواب والخطأ التى يرتكز عليها مثل هذا القرار. فالشخص الذى له مبادئ أخلاقية غير سليمة ، لابد أن يسلك بطريقة مرذولة مستقبحة.

والآن ، ما الذى يعنيه بالضبط قولنا إن الفلسفة "ناقدة" لاعتقاداتنا ؟ فلنعترف ، بادئ ذى بدء ، بأن معظم اعتقاداتنا المتعلقة بأمور حيوية كالدين والأخلاق غير نقدية بصورة واضحة. وفى استطاعتنا أن نقول إن القارئ لو تريث مرةً أخرى ليفكر فى اعتقاداته فى هذه الأمور ، وسأل نفسه عن السبب الذى دعاه إلى الأخذ بهذه الاعتقادات ، لوجد فى معظم الحالات أنه لم يصل إلى هذه الاعتقادات نتيجةً لتفكير جاد متمعن فيها ، بل الأصح انه قَبِلها متأثراً بسلطة ما ، أى بفرد أو نظام معين. أدخل فى ذهنه هذه الاعتقادات. وقد تكون هذه السلطة هى أبويه أو معلميه ، أو الطائفة الدينية التى ينتمى إليها ، أو أصدقاؤه. وكثير من اعتقاداتنا مستمد مما نطلق عليه ، بطريقة غير محددة بدقة ، اسم "المجتمع" أو "الرأى العام". والذى يحدث عادةً هو أن هذه السلطات لا تفرض علينا تلك الاعتقادات ، بل إننا نتمثلها أو نمتصها من "المناخ الفكرى" الذى ننشأ فيه. وهكذا فإن معظم اعتقاداتك المتعلقة بأمور مثل وجود الله أو كون الكذب صواباً فى أية حالة ، هى مخلفات تلقيتها من السلف.

غير أن هذا لا يعنى بطبيعة الحال أن هذه الاعتقادات باطلة أو غير صحيحة بالضرورة. فقد تكون صحيحة كل الصحة. والواقع أن المعتقدات

المنقولة من السلف إلى الخلف تصمد أحياناً مع الأيام. ولكن المسألة هى أن الاعتقاد لا يكون صحيحاً لمجرد كون سلطة معينة تقول إنه كذلك. فلنفرض أننى سألتك فى صدد اعتقاد معين : "كيف تعرف أن هذا صحيح ؟ " فلا جدال فى أنك لو أجبت : "لأن أبوىَّ (أو أساتذتى أو أصدقائى ، .... إلخ) قالوا لى ذلك" ، لما كانت هذه بالإجابة المرضية. فهذا ليس فى ذاته ضماناً لصحة الاعتقاد. إذ إن أمثال هذه السلطات كثيراً ما أخطأت. فقد اتضح بطلان قدر كبير مما كان أجدادنا يعتقدون به عن الطب ، وتوارثته الأجيال اللاحقة. كما أن التلاميذ – لحسن الحظ – كانوا منذ المدارس الأولى يجدون أخطاءً فيما يقوله لهم معلموهم ، ويحاولون أن يكوّنوا بأنفسهم اعتقادات أصح. وبعبارة أخرى فحقيقة الاعتقاد ينبغى أن ترتكز على صفاته الخاصة. ولو علمك أبواك أن الإفراط فى أكل البلح الأخضر خطر على الصحة ، لكان تأكيدهم هذا صحيحاً ، لا لأنهم يقولون ذلك ، بل لأن هناك وقائع معينة (مؤلمة إلى حد بعيد) تثبت صحته. ولو اعترفت "بقانون" علمى قرأت صيغته فى كتاب مدرسى ، فمن الواجب ألا يكون اعترافك به راجعاً إلى أنه وارد فى كتاب مدرسى ، بل لأنه يرتكز على أدلة تجريبية واستدلالات رياضية. فلن يكون لنا الحق فى الأخذ باعتقاد معين إلا عندما يكون هذا الاعتقاد مؤيداً بأدلة وبمنطق سليم. ولكن معظمنا ، كما قلت من قبل ، لا يختبرون اعتقاداتهم على هذا النحو.

وهنا يأتى دور العمل "النقدى" الذى تقوم به الفلسفة. فالفلسفة ترفض قبول أى اعتقاد لا تثبت صحته بأدلة واستدلالات. والاعتقاد الذى لا يمكن البرهنة عليه بهذه الطريقة لا يستحق ولاءنا العقلى ، وهو عادةً مرشد غير مأمون للسلوك. وإذن فالفلسفة تأخذ على عاتقها مهمة البحث الفاحص فى الاعتقادات التى نكون قد قبلناها بطريقة غير نقدية من سلطات متعددة. ولابد

لنا أن نتخلص من ضروب التحامل والانفعالات التى تشوه اعتقاداتنا فى كثير من الأحيان. ولا تقبل الفلسفة السماح لأى اعتقاد باجتياز الاختبار لمجرد كونه مستنداً إلى تراث ، أو لأن الناس يجدون رضاءً انفعالياً فى الأخذ به ، كما أن الفلسفة لا تقبل اعتقاداً لمجرد كونه متمشياً بوضوح مع "التفكير الشائع" ، أو لأن أناساً حكماء قد نادوا به. وإنما تحاول الفلسفة ألا تأخذ أى شىء "قضية مسلماً بها" ، أو "على أساس الثقة". فهى تكرس نفسها للبحث الدائب الصريح ، لكى نتأكد إن كانت لاعتقاداتنا مبررات ، وما إذا كانت هه المبررات قوية أم لا. وعلى هذا النحو تعصمنا الفلسفة من الانحدار إلى مستوى الاستسلام العقلى والقطعية الذهنية التى يتعرض لها البشر جميعاً .

إن عودة الفلسفة إلى مزاولة دورها النقدى إنما هى عودة إلى الاضطلاع بمهمتها التقليدية التى نمت وتطورت عبر العصور ، وإذا كان الفلاسفة الحقيقيون قد قاموا دائمًا بهذا الدور الذى تفرضه أفكارهم نفسها (أكسينوفان نقد فكرة الوجود الإلهى وحاول تخليصها من شوائب الأسطورة والتشبه بالإنسان ، أرسطو نقد أفلاطون الذى جعل من التصور الكلى موجودًا فى ذاته ، ديكارت نقد العقائد والمناهج المدرسية الجامدة ، ليبنتس نقد المنهج التجريبى ، كانط نقد ليبنتس وهيوم معًا وبيّن أن النقد هو الطريق الوحيد الباقى للفلسفة ، هيجل نقد كانط ، وماركس نقد هيجل ... إلخ) فإنهم لم يتوقفوا عن نقد الواقع المحيط بهم حسب طاقتهم وقدرتهم على الرؤية ، وبصورة مباشرة أو غير مباشرة.

إن روح الفلسفة وصميم عملها يفترض أن كل القيم والمفاهيم معرضة من حيث المبدأ للنقد. ولا ينصرف هذا فحسب إلى نقد الفلاسفة بعضهم لبعض بصورة لم تتوقف ولا يمكن تصور توقفها ، ولا إلى نقد المصطلحات والمعانى والتصورات التى لا تستغنى عن استخدامها ، وإنما يصدق أيضًا

على الظواهر والمشكلات التى نصادفها فى حياتنا اليومية ، ونتصور أنها أتفه من أن تستحق النقد والتحليل الفلسفى. لقد علمنا فلاسفة التحليل والوجود والظاهراتية وفلاسفة الاجتماع المعاصرون أن "كل شيء" يمكن أن يكون موضع إشكال فى نظر الفلسفة ، وأن عددًا لا حصر له من مواقف السلوك والكلام والمعرفة والشعور والتقييم والتعامل مع الآخرين .. إلخ يمكن أن تكون موضوعات للنظر والتحليل ، أى يمكن أن تكون موضع نقد. صحيح أن الكاتب والصحفى والمربى والرسام الساخر والسينمائى والإذاعى والقرّاء والناس العاديين يمكن أن يتناولوا هذه الموضوعات نفسها بالنقد. ولكن تناول الفيلسوف لها يختلف عنهم ، فهو يتعمقها من حيث الحقيقة والماهية ، ويربطها بتراث الفلسفة وأدواتها من ناحية ، وبنتائج العلوم الجزئية من ناحية أخرى ، وينظر إليها من حيث دلالتها على أحوال ومواقف أساسية فى وجود الإنسان وبحثه عن معنى حياته وحياة الآخرين ، وعلاقته بالعالَم والوجود والتاريخ.

إن مهمة الفيلسوف فى أيامنا هذه ، هى أن يتبين أن الأفكار والمفاهيم الرئيسية فى الفلسفة إنما تتصل بالمشكلات الواقعية التى يواجهها الإنسان فى حياته ، لأنه إذا انصرف الفيلسوف عن الواقع انصرف الواقع عنه ، وإذا أدار ظهره للأمور اليومية والعينية والمعتادة أدارت ظهورها له. وإذا لم تتجمع المشكلات الفلسفية التقليدية حول مشكلات حقيقية تهمنا فى حياتنا الراهنة فقدت حياتها ، وأصبحت تماثيل فارغة أو تحفًا عتيقة لا تهتم بها إلا عناكب النسيان. كل هذا يقتضى من الفيلسوف الاقتصاد فى إغراق الناس فى التحليلات والتفصيلات والتفريعات والمناقشات ، كما يفرض عليه الاختيار فيما يتناوله : فمشكلات الإنسان ، والحرية ، والديمقراطية ، وعلاقة الفرد بالدولة ،

والحياة والتاريخ والتعريف بتيارات التفكير المعاصرة قد تكون – فى لحظتنا الزمنية الحاضرة ، وموقفنا الاجتماعى وسط أشواك التخلف الرهيب فى كل شيء – أولى من مشكلات متخصصة أخرى أشد بعدًا وتجريدًا. وليس هذا تنازلاً من الفيلسوف ، وإنما هو ضرورة تحتمها وتسوِّغها طبيعة الفلسفة نفسها. فليس "لمقال" الفيلسوف من سبب يبرره إلا إذا اتجه إلى غير الفيلسوف. ولن يحقق وظيفته حتى يكون مقالاً واضحًا ، وتكون لديه القدرة على توضيح تصور الإنسان عن ذاته والذوات الأخرى التى يشاركها الحياة ، ويتحمل المسئولية عنها.

إن تاريخ الفلسفة نفسه يشهد بأن مذاهب الفلاسفة متصلة بالواقع ، وأنها يمكن أن تتحول إلى قوى تاريخية فعَّالة. فأفلاطون كتب "الجمهورية" على أمل إصلاح المجتمع الإغريقى ، و"العقد الاجتماعى" لجان جاك روسو – فى رأى الكثيرين – هو الذى صنع الثورة الفرنسية ، وديكارت كتب بالفرنسية – التى كانت فى عصره لغة شعبية – كى يفهمه الناس. وباختصار يمكننا القول إن كبار الفلاسفة أرادوا دائمًا أن يقولوا شيئًا عن الواقع ، ويؤثروا على الناس بكلمات معقولة ومحسوسة. وليست رسالة الفلسفة الباقية فى بناء معرفة "سرية" أو مجردة ، بل فى التغلغل فى حياة البشر ، وتكوين أحكامهم وتوضيح قراراتهم. وإذا كان تاريخ الفلسفة هو رصيد المشكلات الحاضرة أبدًا ، فهو كذلك مجموع الحلول الممكنة لها فى كل عصر وعند كل مفكر.

الفلسفة تبدأ بالدهشة :

إن الفلسفة تبدأ بالدهشة كما قال أفلاطون وأرسطو ، وهى قادرة بذلك أن تجعلنا نتخيل كل شىء مختلفاً عما هو عليه. فنرى المألوف كما لو كان غريباً والغريب كما لو كان مألوفاً. والدهشة هى نوع من اليقظة. واليقظة هى أهم ما يميز الإنسان المفكر أياً كان : سواء كان فيلسوفاً أو فناناً أو أديباً أو عالماً. إن الرسول ﷺ يقول : "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا". وهذا حق ، لأن الناس فى هذه الحياة الدنيا نيام ، والموت وحده هو الذى يوقظهم من غفوتهم، ويؤدى إلى صحوتهم فى الحياة الآخرة ، لكن الناس قبل الموت فى هذه الحياة الدنيا نفسها ينتبهون انتباهة أخرى أو انتباهات ، ومصدر هذه الانتباهة أو الانتباهات هو الدهشة ، بحيث نستطيع أن نقول كذلك : "الناس نيام فإذا دهشوا انتبهوا".

ملايين الناس تمر بآلاف المناظر والأحداث والمواقف كل يوم ، ولا يستوقفهم منها شىء ، وكأنها لا تعنيهم. والفنان أو الأديب هو وحده الذى تستوقفه بعض هذه المواقف والمناظر ، فتثير دهشته ، وتوقظه وتهزه ، ويجد فيها ما لا يجده غيره من الناس ، فينفعل بهذا المنظر أو ذاك ، بهذا الموقف أو ذاك انفعالاً لا يملك معه أن يظل يرقبه "من الخارج" أو يقف منه موقف المتفرج ، بل يسعى إلى أن يعيش فى داخله ويمتزج به فى كيانه. والفنان عندما يستوقفه هذا المنظر أو الموقف ، يسعى دائماً إلى أن يعبر عن تجربته الفنية فى قصيدة أو قصة أو لوحة تتوافر فيها الصورة الفنية ، ويعرضها علينا فيثير اعجابنا. والفنان فى هذا إنما هو يعيد خلق الشىء أو الموقف أو المنظر من جديد ويقدم لنا انتاجه فنراه ، وكأننا لم نره من قبل ، كأننا نراه للمرة الأولى. لماذا ؟ لأن الفنان قد دهش بما لم ندهش به ، واستوقفه ما لم يستوقفنا. فالفنان خالق

لأنه يمسح بيده على وجه الكون ، فيراه كالمرآة المجلوة ، تعكس إلينا نحن ما رآه هو فيها. وهو خالق لأنه يدهش أمام بعض عناصر الكون ، فيختارها، وينجح فى إثارة دهشتنا وإعجابنا بهذا الذى لم نلتفت إليه من قبل ، مع أننا نكون قد مررنا به آلاف المرات .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن تاريخ العلم كله يشهد بأنه تاريخ للدهشة ، فالاكتشافات العلمية كان ولا يزال الباعث عليها هو الدهشة ، "أرشميدس" Archimedes (٢٨٧ - ٢١٢ ق.م) يكتشف يوماً ، وهو فى الحمام ، أن أعضاءه الغائرة فى الحوض الذى يستحم فيه أخف وزناً من أعضاءه غير الغائرة ، فيدهش لهذه الظاهرة ، ويقدم لنا قانون الأجسام الطافية(*). "نيوتن".Newton, I (١٦٤٢ - ١٧٢٧) يرى التفاحة تسقط من الشجرة على الأرض ، فتثير انتباهه هذه الظاهرة التى رآها ملايين البشر ولم تستوقفهم ، أعنى لم يدهشوا لها. فيكشف لنا عن قانون الجاذبية الأرضية.

وإذا كانت الدهشة هى عماد العلم والفن ، فهى أيضاً عماد التفلسف. غير أن دهشة الفيلسوف هى من طراز فريد ، تختلف به عن دهشة كل من الفنان والعالِم. فدهشة الفنان أو العالِم تبدأ أمام ظاهرة جزئية أو منظر خاص أو موقف معين .أما الفيلسوف فلما كانت نقطة البدء فى دراسته أعم بطبيعتها من نقطة بدء العالِم والفنان ، فلابد أن يكون موضوعها أكثر كلية وعمومية من موضوع الدهشة العلمية أو الفنية ، فالموضوع الذى يدهش أمامه الفيلسوف ليس هذا المنظر أو ذاك أو هذه الظاهرة أو تلك ، بل الحياة والوجود كله ، وخالق هذا الكون ، والإنسان ككل ، وقيمة الوجود الإنسانى بعامة ، وعلاقة

(*) ينص قانون الأجسام الطافية عند أرشميدس على أنه :

"إذا غُمِرَ جسم فى سائل لقى من السائل دفعًا إلى أعلى يعادل وزن السائل الذى يزيحه الجسم".

الإنسان أو عقله بالكون حوله وكيفية إدراكه له. ومجموعة المثل العليا التى يترسمها الناس فى حياتهم. .. إلخ.

إن الدهشة هى تساؤل دائم ، فالإنسان كما يقول "شوبنهور" Schopenhauer, Arthur (١٧٨٨ - ١٨٦٠) يتساءل دائماً عن المبدأ الأول - وعن المصير: من أين أتينا ؟ ولماذا أتينا ؟ وكيف ينتهى أجلنا ؟ وإلى أين نذهب ؟ ولماذا تنتهى الحياة على صورة الموت ؟ وما هى حقيقة الموت ؟ وهل الخلود حقيقة واقعة أم أنه وهم فارغ ، وإن حياتنا تنتهى إلى الأبد بالموت ؟ وما هى الحقيقة ؟ وما هو الخطأ ؟ وما هو اليقين ؟ ولماذا وُجِدَ الشر ؟ وما هو معنى القيم ؟ وما مصير الإنسانية بأسرها ؟ وأيضاً ما مصير هذا العالَم ؟ ثم كيف نتصور وجود خالق لهذا العالَم ؟ وما علاقتنا به وعلاقته بنا ؟ ... إلى آخر تلك التساؤلات العديدة التى اعتدنا أن نثيرها بمجرد أن ننفض عنا غبار الحياة العملية الجارية ، بما فيها من تقاليد متوارثة وعادات متأصلة وأفكار مسبقة .

السؤال الفلسفى إذن يتجه إلى الأشياء التى تقع أمام أعيننا كل يوم ، ولكن هذه الأشياء تشف أمام السائل ، تفقد كثافتها وبداهتها المعهودة ، تكشف عن وجهها العميق الذى لم نألفه من قبل. فى كل يوم نقول : هذا صديقى ، هذا بيتى ، هذه زوجتى ، وكأنما "نملك" هذا كله. وفجأة يقفز إلى ذهننا سؤال فنتوقف : هل نملك هذا كله ؟ هل يمكن حقاً أن نملك ؟ ما معنى "الملك" على الإطلاق ؟ عندئذ نتفلسف ، فنبتعد ونقترب ، لا عن الأشياء المعتادة فى حياتنا اليومية ، بل عن تفسيراتها وقيمها المألوفة. ونحن لا نفعل هذا لكى نشذ عن الآخرين ، أو لكى يقال إننا نفكر بخلاف بقية الناس، بل لأن وجهاً جديداً للأشياء قد ظهر أمامنا فجأة ، وجهاً مختلفاً عن ذلك الذى تعوّدنا عليه وسلّمنا به فى لقائنا معه كل يوم. هذه التجربة الباطنة هى التى اتُفِقَ على أنها أصل

التفلسف. إنها تجربة الدهشة.

الجدير بالتنويه أن الدهشة ليست مجرد بداية أو تمهيد سابق على فعل التفلسف ، بحيث يمكن أن تزول بعد فترة قصيرة أو طويلة. وإنما هى مبدأ التفلسف وجوهره الثابت وقوته المحركة ، ولو زالت عنه لتوقف التفلسف نفسه.

والإنسان المندهش لا يعرف السبب الخفى وراء ما يُدْهِشَه ، لأن الذى يعرف لا يندهش ، وهو كذلك لا يفتقر إلى المعرفة وحسب ، بل هو مثل "سقراط" : يعرف أيضاً أنه لا يعرف. ومع ذلك فهو لا ييأس ولا ينفض يديه، وإنما يمضى سائراً على الطريق ، قد تخرسه الدهشة لحظة ، لكن لا يلبث أن يصحو ويواصل سيره ، يدفعه الشوق إلى المعرفة القصوى. فنحن دائماً "على الطريق" ، لم نوجد بعد – كما قال باسكال Pascal (١٦٢٣ – ١٦٦٢) – ولكن نأمل أن نوجد. ولهذا فإن الله لا يندهش ، لأنه لا يفتقر إلى علم الوجود ، والحيوان لا يندهش ، لأن نفسه الحسية لا يقلقها السعى إلى معرفة الأسباب .

وظيفتان للفلسفة : التحليل والتركيب :

يمكننا القول إن للفلسفة وظيفتين أساسيتين هما : التحليل والتركيب ، وهما نمطان متميزان من النشاط الفكرى يزاولهما الفلاسفة من حيث هم جماعة ، وخير ما يوضح ذلك ما نلاحظه من أنه كان للفلاسفة على الدوام مقصدان أساسيان هما : بناء أنساق من الميتافيزيقا والمنطق والأخلاق (وهذا تركيب) وتوضيح أفكار هامة (وهذا تحليل). ومن الملاحظ أن ما هو تركيب من وجهة نظر معينة هو تحليل من وجهة نظر أخرى ، فجمهورية أفلاطون على سبيل المثال تعد بناء فى نطاق الفكر لمجتمع عادل كامل فى عدالته ، أو هى قد تعد تحليلاً لفكرة المجتمع العادل. ولذا يمكن القول بأن التقابل بين التحليل والتركيب

هو تقابل صورى لأنهما متكاملان يتمم أحدهما الآخر عملياً.

والتحليل كمنهج عام يراد به تقسيم الكلى إلى أجزائه ، ورد الشيء إلى عناصره المكونة له. وهو لا يقتصر على الفلسفة وحدها ، بل نجده متمثلاً فى أكثر من مجال فكرى ، فهناك التحليل الرياضى والمنطقى ، والتحليل النفسى ، والتحليل الطبيعى ويستعمل أصلاً فى الكيمياء. ولذا فالتحليل يختلف تبعاً لطبيعة الموضوع أو المركب الذى نحلله ، فهو قد يكون مادياً مثل التحليل الكيميائى ، وقد يكون عقلياً مثل تعريفنا أو تحليلنا لفكرة ما أو لمفهوم عقلى معين.

إن كل بحث يتضمن "مشكلة" أو "معضلة" ، وهى عبارة عن مسائل مركبة يُطلَب تفسيرها أو حلها. ومن أجل ذلك يجب علينا أن نقسّم تلك "المشكلة" أقساماً كثيرة بقدر ما يلزم لإزالة كل غموض فى معناها ، وبعبارة أخرى ينبغى أن نقسّم المشكلة المعقدة إلى أبسط منها : وهذه بدورها إلى أبسط منها ، حتى نصل إلى المعانى البسيطة كل البساطة بحيث لا تقبل القسمة ، وعندئذ يلزمنا أن نعالج ، على حدة ، كل مسألة من تلك المسائل الجديدة وقد أصبحت أوضح وأبسط.

وكل "مشكلة" تشتمل على "مجهول" – وهو عامل لا نعرف كنهه فى البداية (وإلاّ لما كانت هناك مشكلة) – وسبيلنا للكشف هو أن نحدد علاقته بالعوامل الأخرى المعلومة لنا من قبل. إن عملية الانتقال من المركب إلى البسيط ، من الكلى إلى الأجزاء ، يطلق عليها اسم "التحليل" analysis. والتحليل كمصطلح فلسفى ، يُطلق على نهج معرفى أو عملية معرفية تبدأ من المعطى (الفعلى أو الحسى) لتصل إلى أجزائه المكونة أو عناصره أو أسبابه وشروطه، حسب اختلاف الموضوع أو المذهب الفلسفى.

ويربط بعض الباحثين بين التحليل والنقد ، فنجد "هنتر ميد" Hunter Mead مثلاً يقول بأن "أول نشاط فلسفى رئيسى هو التحليل أو النقد". وفى هذا الدور يقوم المفكر بتحليل ما يمكن تسميته بأدواتنا العقلية : فيدرس طبيعة الفكر ، وقوانين المنطق والاتساق بين الأفكار ، والعلاقات بين أفكارنا والواقع ، كما يقوم بتحليل طبيعة الحقيقة ، ومدى صلاحية مختلف المناهج التى نستخدمها فى توصلنا إلى "الحقيقة" أو "المعرفة" (وهذا الموضوع الأخير ربما كان أهم الجميع). فهو يحلل مناهج العلم والدين والفن والحدس والموقف الطبيعى ، ويبدى اهتماماً كبيراً بأية وسيلة يستخدمها الناس لاكتساب المعرفة أو تنظيم تجربتهم ، إذ إن الفيلسوف ربما كان أكثر الناس اهتماماً بالبحث عن أفضل الطرق للوصول إلى اليقين. ومن بين الأعمال التى يهتم بها ، اختبار المناهج العقلية فى جميع الميادين لكى يرى ماذا يمكنه أن يتعلم منها ، ولكنه أكثر اهتماماً بتقويم هذه المناهج لذاتها. وهنا تقوم الفلسفة بدور الناقد الأعلى ، إذ إنها تقوم باختبار دقيق لما تدعيه مختلف الفروع الأخرى من معرفة أو حقيقة. وذلك على أساس المناهج المستخدمة فيها واتساق النتائج التى تصل إليها ، والعلاقة بين هذه النتائج وبين الأوجه الأخرى للتجربة البشرية.

وعلى الرغم من أن الفيلسوف الألمانى "كانط" Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) كان أول من استخدم لفظتى "تحليلى" analytic و"تركيبى" synthetic حين عرّف الحكم التحليلى بأنه ذلك الحكم الذى تكون فيه فكرة المحمول متضمنة بالفعل فى فكرة الموضوع ، وأنها بناءً على ذلك لا تضيف شيئاً جديداً إليها ، فإن عملية التحليل كمنهج للتفكير كانت مستعملة منذ القدم. فالمنهج الجدلى عند سقراط وأفلاطون لم يكن سوى تحليل لأفكار معينة بقصد الوقوف على المفهوم الأساسى الذى تشير إليه هذه الأفكار ، مثل فكرة العدالة وفكرة الفضيلة وفكرة التقوى. . وغيرها ، كما اتُخِذَ التحليل كمنهج

فى الرياضيات اليونانية ، إلا أن وظيفة التحليل فى الفلسفة الحديثة تغيرت تبعاً للغرض الذى استُخْدِمَ من أجله ، فبعد أن كان التحليل لتوضيح الأفكار ، كما كان الحال بالنسبة لسقراط عن طريق السير الراجع من الأمثلة الجزئية إلى ما وراءها من مبادئ عامة ، أو عن طريق الحفر فى السلوك الجزئى ، بغرض استخراج المبدأ الكامن فيه ، كما يحفر المثَّال قطعة من الرخام ليستخرج منها تمثالاً معيناً ؛ أصبح التحليل فى الفلسفة الحديثة على يد "ديكارت" Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠) و"ليبنتس" Leibniz (١٦٤٦ - ١٧١٦) تحليلاً للوجود ، وعلى يد "جون لوك" Joun Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤) و "ديفيد هيوم" David Hume (١٧١١ - ١٧٧٦) تحليلا للمعرفة ، ليردوها إلى وحداتها الأولية ، بغض النظر عن وحدات التحليل بالنسبة لهم ، لأن الشيء الذى يجمعهم جميعاً هو تحليل المركب إلى عناصره الأولية أو البسيطة. وأصبح يُنْظَر إلى التحليل فى الفلسفة كجزء من عمل الفيلسوف من حيث إنه العملية التى تقرر بوضوح وصراحة ، ما هو متضمن من قبل فى أفكارنا مهما كان مختفياً أو محتجباً.

ومنذ بداية القرن العشرين ذهب كثير من الفلاسفة إلى أن التحليل هو كل عمل الفلسفة أو هو الفلسفة بأكملها ، من حيث إن الفلسفة لا تتكون على النحو نفسه الذى تتكون عليه العلوم الأخرى ، إذ هى لا تقوم على أساس محاولة توسيع معرفتنا ، بل على أساس نوع آخر من النشاط يوضح ما نعرفه فعلاً من قبل ، وذلك بحل المشكلات التى لا تنتج عن جهلنا بالواقع نفسه بقدر ما تنتج عن الخلط العقلى وسوء الفهم. ولم يكن ذلك الخلط ناشئاً إلا عن سوء استخدامنا للإطارات التى تصب فيها أفكارنا ومعارفنا ، وهى اللغة. ولذا أصبح تحليل اللغة هو العمل الأساسى للفلسفة ، لا من حيث هى مجرد ألفاظ ، بل من حيث ما تشير إليه من أفكار ومعرفة ، وبخاصةٍ تلك المتعلقة بالعلوم. وخير من يمثل هذا الاتجاه الجديد

هم فلاسفة الوضعية المنطقية و"رسل" و"مور" و"فتجنشتين" و"كارناب" وغيرهم ممن حاولوا أن يقوموا بمراجعة المدركات العقلية من حيث هى "إعادة تخطيط لخريطة الفكر".

أما المهمة الرئيسية الأخرى ، أو **الوظيفة الثانية** للفلسفة فهى **التركيب** Synthesis. فلكى نكون على ثقة من أننا لم نغفل شيئاً فى الطريق الذى سلكناه من المعقد إلى البسيط ، ومن الصعب إلى السهل ، يجب أن نعود فنسلك الطريق فى الاتجاه المقابل ، فنسير من البسيط إلى المعقد. متتبعين ترتيباً منطقياً ، ومبيّنين فى كل خطوة نخطوها أن الأكثر تعقيداً مترتب مباشرة على الأكثر بساطة : وتلك هى مهمة التركيب أو التأليف. فإجراء التركيب هو بمثابة اختبار عكسى ، وهو اختبار لازم ليدلنا على مبلغ الصحة فى التحليل الذى أجريناه.

ونستطيع أن نقول إن الوظيفة التحليلية للفلسفة ربما كانت الأحدث عهداً ، إذ بدأت تظهر على نحو متزايد فى الفلسفة المعاصرة. وهناك من الفلاسفة المعاصرين اليوم من يقصر وظيفة الفلسفة على التحليل ، ويرفض هؤلاء الوظيفة التركيبية للفلسفة ، لكن الواقع أن الوظيفة التركيبية هى فى الوقت نفسه المهمة التقليدية الأقدم عهداً.

فما المقصود بالوظيفة التركيبية؟

المقصود بالوظيفة التركيبية هى أن الفلسفة تحاول إيجاد مركب لكل المعارف والتجارب الإنسانية الكلية ، فإذا كانت العلوم الجزئية تقتطع شريحة من الكون لدراستها وتكتفى بذلك ، فإن الفلسفة تحاول أن تقدم صورة شاملة للكون. ومن هنا ينصب الاهتمام على النتيجة المتوقعة لا على المناهج أو الأدوات المستخدمة. وفى هذا النشاط التركيبى يبحث الفيلسوف عن أشمل رأى

ممكن بشأن طبيعة الواقع ، ومعنى الحياة وهدفها ، وأصل الوعى ومكانته ومصيره ، وغير ذلك من الأسئلة الحدية القصوى. فهنا ينصب الاهتمام على "الاكتمال" أو "الشمول". والهدف هو تكوين نظرة إلى العالَم. أو صورة عن الكون لا تغفل من التجربة البشرية شيئاً يمكنه أن يجعل من هذا التدفق المستمر للتجربة كلاً منظماً له مغزاه .

ويحرص الفيلسوف الحديث عادةً على ألا يخلط بين هذا البحث عن نظرة شاملة إلى العالَم الحقيقى ، وبين الاعتقاد الضمنى بأن أى مركب متكامل يصوغه للتاريخ والتجربة البشرية هو مركب نهائى. إذ يبدو من المؤكد أنه مادام الجنس البشرى مستمراً ، فسوف تظهر خبرات وتجارب جديدة تحتاج إلى مركبات أحدث وأوفى. وعلى كل جيل أن يعيد تقويم وتفسير الخبرة المتراكمة للجنس البشرى كله ، وذلك على الأقل لأن مجموع التجربة البشرية قد زاد منذ الانتهاء من أى مركب سابق. فليست هناك صيغة فلسفية ، مهما يكن شمولها ، تستطيع أن تصمد طويلاً بوصفها الكلمة الأخيرة. فقد تظل هذه الصيغة باقية بضعة أجيال ، على الرغم من أن ظروف المدنية الحديثة لا تتيح مثل هذا العمر الطويل نسبياً إلا للقلة القليلة جداً. ومن هنا يبدو أن الفيلسوف ، شأنه شأن أى مشتغل آخر بالأعمال العقلية، لديه عمل دائم لا ينتهى.

التركيب إذن كمنهج هو سير الذهن من المعانى والقضايا البسيطة أو اليقينية إلى معان وقضايا أكثر تعقيداً أو تلزم عنها بالضرورة. أو هو بصفة عامة ، الصعود من التفاصيل إلى المجموع. وهو بهذا المعنى يقابل التحليل الذى يعنى الهبوط من الكلى إلى الأجزاء. والتحليل والتركيب يؤلفان ، بهذا المعنى، التحليل البرهانى ، ولذا أمكن لهيجل أن يعتبر منهج الفلسفة الخاص تحليلياً وتركيبياً معاً ، فى رد واضح على الفلاسفة السابقين اعتباراً من ديكارت.

وعلى وجه الإجمال يمكننا أن نقول الآتى :

١- إننا حين نصف هذا الفيلسوف بأنه تحليلى ، وذلك الفيلسوف بأنه تركيبى، يجب أن نلاحظ أنه يندر جداً أن نجد الفيلسوف الواحد قد انصرف إلى التحليل وحده فى كل فلسفته أو إلى التركيب وحده. بل إننا نطلق عليه هذه الصفة أو تلك حسبما يكون الطابع الذى يغلب على عمله – سواء كان تحليلياً أو تركيبياً – وخير مثال على ذلك ديكارت الذى جعل التركيب والتحليل خطوتين هامتين فى منهجه الفلسفى .

وبصفة عامة يكون الفيلسوف تحليلياً إذا ما جعل مهمته استخراج أو استنتاج النتائج مما يتصدى لتحليله سواء كان هذا "شيئاً" أو "عبارة لغوية". فإذا لم يكتف بمجرد تفتيت ما يتناوله ، بل نراه يضيف من عنده أحكاماً عن الوجود – كله أو بعضه – اعتبر فيلسوفاً تركيبياً. فهيوم مثلاً يُعَد فيلسوفاً تحليلياً ، لأنه يحلل الفكر إلى عناصره الأولية لينتهى إلى أن تلك العناصر الأولية إما انطباعات أو أفكار (والفكرة بالنسبة لهيوم انطباع حسى غاب مؤثره وبقى فى الذهن صورة تتفاوت درجة وضوحها ونصوعها). بينما كان أفلاطون فيلسوفاً تركيبياً حين افترض أحكاماً إيجابية يصف بها الوجود ، كأن يقول إن هناك عالماً عقلياً قوامه أفكار إلى جانب هذا العالَم المحسوس الذى نعيش فيه والذى قوامه أفراد جزئية.

والفيلسوف التحليلى يبدأ بتحليل موضوع المشكلة كالطبيعة أو الإنسان أو اللغة – مثلاً – ثم يحاول رده إلى وحدته الأولية التى يتركب منها ، والتى لا يمكن بدورها أن تتحل إلى ما هو أبسط منها ، كما فعل "رسل" حين حلل الطبيعة إلى وحدات أولية هى الحوادث events وحللها ليبنتس إلى الذرات الروحية "المونادات" Monades ، أو كما فعل لوك وهيوم بردهما المعرفة الإنسانية إلى مجموعة من

الانطباعات الحسية ، أو كما حلل "رسل" اللغة إلى قضايا أولية.

٢- إنه من الملاحظ أن أياً من صفتى التحليل والتركيب قد لا تسود أعمال فيلسوف معين فقط بحيث يتصف بهذه الصفة أو تلك - بل إنها قد تسود أحياناً عصراً بأكمله كعصرنا هذا - كما قد يسود التركيب عصراً بأكمله، كما كانت الحال فى فلسفة العصور الوسطى ، أو فى الفلسفة الأوربية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر (ما عدا إنجلترا) ، كما أن نزعة التحليل قد تكون هى النزعة السائدة فى بلد ما كإنجلترا مثلاً ، بينما نرى أن التركيب هو النزعة السائدة فى بلد آخر كألمانيا مثلاً .

٣- إنه على الرغم من ارتباط التحليل بالنزعة التجريبية فى أغلب الأحوال (كما هو واضح بالنسبة لأغلب الفلاسفة الإنجليز مثل لوك وهيوم وجون ستيوارت مل وبرتراند رسل وغيرهم من الذين يتميزون أساساً بطابعين هما التحليل من ناحية والنزعة التجريبية من ناحية أخرى ، بحيث نراهم دائماً ينتهون بتحليلهم إلى أن العناصر الأولية هى الإحساسات البسيطة التى تتأثر بالحواس) ، وعلى الرغم من ارتباط التركيب بالنزعة العقلية أيضاً فى أغلب الأحوال (كما هو واضح بالنسبة لفلاسفة فرنسا وألمانيا بصفة خاصة مثل ديكارت وإسبينوزا وهيجل وغيرهم من الذين يتميزون أساساً بطابعين آخرين هما التركيب من ناحية والنزعة العقلية من ناحية أخرى ، بحيث نراهم يقيمون مبدأ يبنون عليه بناءً متسقاً مع ذلك المبدأ لأنه مستنبط منه) ، فإن ذلك لا يعنى بالضرورة أن يكون الفيلسوف التحليلى تجريبياً ، ولا أن يكون الفيلسوف التجريبى تحليلياً ، أو أن يكون الفيلسوف العقلى تركيبياً أو يكون الفيلسوف التركيبى عقلياً.

فالطبائع البسيطة natures simples التى ذهب إليها ديكارت ، وهى الخواص الطبيعية المجردة التى تُدْرَك بالذهن لبساطتها إدراكاً مباشراً كالامتداد

والوجود والوحدة والحركة والشكل والزمان والمكان ، ليست سوى نتيجة تحليل ، وإن كانت هى نفسها موضوعات لحدس عقلى ، وليست بالموضوعات الحسية التى تتأثر بها الحواس .

وكذلك الحال بالنسبة للذرات الروحية (المونادات) – التى أخذ بها ليبنتس – هى أيضاً نتيجة تحليل لكنها ليست مما تدركه الحواس .

وإذن فهناك عمليات فلسفية تحليلية لم تقتض أن يكون القائم بها من الفلاسفة التجريبيين الذين يردون الأمر كله إلى الحواس وادراكاتها.

كما أن العكس قد يكون صحيحاً كذلك ، إذ قد يكون الفيلسوف تجريبياً دون أن يكون فيلسوفاً تحليلياً – مثل الفيلسوف الإنجليزى الحديث صمويل الكسندر S. Alexander (١٨٥٩ – ١٩٣٩) فى كتابه "المكان والزمان والألوهية" Space, Time and Deity ، فهو رغم نزعته التجريبية – على عادة الفلاسفة الإنجليز – ورغم اعتماده على الحواس مصدراً للمعرفة ، فإنه يبنى منها بناء فلسفياً شبيهاً بالأنساق التى يقيمها الفلاسفة العقليون. ولهذا فهو فيلسوف تجريبى وتركيبى فى الوقت نفسه ، كما أنه يعتقد أن الفلسفة لا تختلف عن العلم إلا فى كونها تبحث فى مشكلات أعم من مشكلات العلم ، ولكنهما معاً (أى الفلسفة والعلم) يدوران حول موضوعات بعينها.

أعداء الفلسفة واعتراضاتهم :

ذكرنا من قبل إن الفلسفة – أكثر من غيرها من فروع المعرفة البشرية – دائماً ما تتعرض للشك فى قيمتها وجدواها ، فأعداء الفلسفة برعوا فى تنظيم صفوفهم ، وهم لم يبلغوا من كثرة العدد ما بلغوا فى أيامنا هذه. والمسئول عن ذلك ، إلى حد ما ، ما حققه العلم من انتصارات حاسمة. وقد وصل العداء

للفلسفة إلى حد وصف الفيلسوف فى تأملاته الغامضة المفتقرة إلى اليقين فى أعماق طبيعة الأشياء وعللها ، بأنه أشبه "برجل أعمى يبحث فى غرفة مظلمة عن قطة سوداء لا وجود لها ". ولذا نجد لزاماً علينا أن نعرض لبعض تلك الاعتراضات التى وُجِهَت إلى الفلسفة والرد عليها ، وتقديم بعض التعريفات غير الدقيقة وغير الصحيحة. ومن خلال هذا المنهج السلبى سنحاول الاقتراب من بعض التعريفات الصحيحة للفلسفة.

ولنبدأ **بالاعتراض الأول** القائل بأنه فى الوقت الذى يحقق العلم تقدماً مطرداً ، ويفضى إلى تطبيقات ذات نفع بالغ ، لم تسجل الفلسفة تقدماً ما ، وليس لها تطبيقات عملية.

إن هذا الاعتراض لا يقوم على أساس عادل ، ذلك لأن العلوم ذاتها هى فروع من شجرة الفلسفة. وبقدر ما نجيب على الأسئلة إجابة دقيقة ، بقدر ما تُعد هذه الإجابات إجابات علمية. وإن ما يُطلق عليه الناس اليوم "فلسفة" ، هو ما بقى من أسئلة ظلت دون إجابة. فالعلوم قد استقلت عن الفلسفة ، غير أن ما يميز الفلسفة هو أنها أعم من هذه العلوم ، فالفلسفة لا تستطيع أن تتبع التفاصيل المحتشدة فى أى علم من العلوم الخاصة .

والآن يمكننا العودة إلى السؤال القائل : هل حدث تقدم فى الفلسفة يشبه التقدم والتطور الذى تم فى سائر العلوم ؟ هل توصلنا إلى إجابات عن المسائل الفلسفية الكبرى أم لازلنا نقف فى المكان عينه الذى تركنا فيه الفلاسفة السابقون ؟

لا شك أن الفلسفة قد صقلت مفاهيمها ومناهجها وبلغت نتائج مأمونة لا يمكن التراجع عنها ، وانتهت إلى وجهات نظر لم يعرف الأقدمون عنها شيئاً ، وألقت أضواء جديدة على مشكلات قديمة ، بل وصل بها الأمر فى

بعض الأحيان إلى رفض هذه المشكلات القديمة نفسها ، والكشف عن أقنعتها اللغوية الكاذبة. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه يمكننا القول إن كثيراً من التغيرات الأساسية فى العلم كانت تتحقق دائماً بالتعمق بحثاً عن الأسس الفلسفية. فالتحول من النظام البطليموسى إلى النظام الكوبرنيقى ، ومن الهندسات الأقليدية إلى الهندسات اللاأقليدية ، ومن ميكانيكا نيوتن إلى الميكانيكا النسبية وإلى المكان المنحنى ذى الأبعاد الأربعة – كل هذه التغيرات كانت مدفوعة بالبحث الفلسفى المتعمق.

أما **الاعتراض الثانى** فيقول بأن الفلسفة قطعية (دوجماطيقية)(*)، وتزعم أنها تقرر أحكامها فى الأشياء على أساس العقل الخالص ، على حين أن الطريقة الوحيدة المجدية للوصول إلى الحقيقة هى الاستعانة بالتجربة العملية.

وللرد على هذا الاعتراض نقول بأن الفلسفة ليست فى حاجة لأن تكون قطعية ، صحيح أن بعض المذاهب الفلسفية كان يغلب عليها الطابع القطعى (الدوجماطيقى). فقد استهدف عدد كبير من الفلاسفة وضع مذاهب مغلقة ، بُنِيَتْ بناءً أولياً ، تدعى العصمة ، وهى إما أن تُقْبَل أو تُرْفَض ككل. فى حين أن العلم لا يستخدم إلا الفروض ، ويسعى دائماً لتحقيقها بالتجربة والملاحظة، ومن ثَمَّ يفتح الطريق إلى التصحيح المتصل ، والنمو المطرد.

وقد زادت فى أيامنا هذه ورطة الدوجماطيقيين الذين يدعون الكمال لمذاهبهم ، فلم يعودوا يجدون آذاناً صاغية لهم فى الأوساط المثقفة. ولما كان الفلاسفة هم وحدهم الذين يفكرون فى الأشياء بطريقة عقلية ، فإنهم يستطيعون أن يستخدموا أى منهج ، أياً كان ، بحرية. ويجب على الفلسفة أن تكمل العلوم وأن تدمج مناهجها. ويقول وليم جيمس William James

(*) انظر معنى "دوجماطيقية" فى هامش صفحة 130.

(١٨٤٢ - ١٩١٠) :

"ولا ندرى لم لا تنتصح الفلسفة بهذه السياسة وتنتهى إلى القضاء على كل دوجماطيقية قضاء نهائياً ، وتغدو فلسفة فروض فى طرائقها شأنها شأن العلوم التجريبية" .

أما إذا انتقلنا إلى **الاعتراض الثالث** الذى يقول بأن الفلسفة منفصلة عن الحياة الواقعية وتحلق فى عالَم بعيد من المجردات .

مرة أخرى إذا كان هذا الاعتراض يصدق على بعض المذاهب الفلسفية، فإنه لا يصدق على كل مذهب فلسفى ، فهناك مذاهب فلسفية كالفلسفة "البراجماتية" Pragmatism ، مثلاً ، وهى التى نشأت فى أمريكا فى مطلع القرن العشرين على يد ثلاثة من أعلام المفكرين هم "تشارلز ساندر بيرس" Charles Sanders Peirce (1839 . 1914) "ووليم جيمس" و"جون ديوى" John Dewey (1859 . 1952) اتفقوا جميعًا على أن صدق الفكرة معناه التحقق من منفعتها للإنسان. فقد نشر "بيرس" بحثًا بعنوان "كيف نوضح أفكارنا لأنفسنا" ذهب فيه إلى أن توضيح معنى الفكرة يكون بالقياس إلى آثارها العملية في حياة الإنسان ، واعتبر الكلمات والعبارات التى تتألف منها خططًا للعمل Plans of action وكل فكرة لا تنتهى إلى سلوك عملي فى دنيا الواقع هى فكرة باطلة ولا معنى لها.

وجاء وليم جيمس أكبر أعلام هذا الاتجاه فاعتبر الفكرة الصادقة هى التى تؤدى بنا إلى النجاح فى الحياة ، والمعتقد الصحيح هو الذى ينتهى إلى تحقيق أهداف معينة فى دنيانا الحاضرة ، ومن ثمَّ فإن أفكارنا ومعتقداتنا لا تُطْلَب لذاتها وإنما تُلْتَمس كوسائل لتحقيق أغراض في دنيا الواقع. ومثل هذا

يقال في الأخلاق ، فالفعل الإنساني فاضل متى حقق نفعًا فى حياة الإنسان... إلخ. وهكذا أصبح معيار الصواب والخطأ هو القيمة المنصرفة Cash Value فى دنيا الواقع. ليس ثمَّة حق فى ذاته بصرف النظر عن ظروفه ، إنه كالسلعة قيمتها تُقَدَّر بثمنها الذى يُدْفَع فيها فعلاً فى السوق.

وجاء "جون ديوى" فصرح بأن الفكر ليس إلا وسيلة أو ذريعة لخدمة الحياة فيسمى مذهبه بمذهب "الذرائع" Instrumentalism. والمعتقد صواب أو حق متى ترتبت عليه آثار عملية فى حياتنا الواقعية.

وهكذا يتضح لنا مدى بطلان الزعم القائل بأن الفلسفة منفصلة عن الحياة ، وبطلان القول بأن الفيسوف يستغرقه التأمل المجرد ، لأننا إذا أردنا الإنصاف فينبغى أن نقول إن التأمل الذى يتخذ منه الفيلسوف منهجاً ليس تأملاً يدور فقط فى حياته الباطنية الشعورية ، بل قد يتأمل فى الخارج ويتخذ من الحياة المادية الواقعية موضوعاً للتأمل.

بعض التعريفات الممكنة :

إذا شئنا تلخيصاً لبعض التعريفات المتباينة للفلسفة ، كان فى وسعنا أن نصف الفلسفة بأنها النشاط الذى يسعى فيه الناس إلى فهم طبيعة الكون ، وطبيعة أنفسهم ، والعلاقة بين هذين العنصرين الأساسيين فى تجربتنا. وهكذا تكون الفلسفة بحثاً منظماً عن المعرفة ، نقوم به عن طريق التفكير المنظم فى كشوف العالِم ، ونتائج المؤرخ ، ورؤيا الفنان والشاعر والمتصوف ، مع الجمع بين هذه كلها وبين تجربتنا اليومية الشخصية. وتقتضى هذه الأفكار المنظمة من جانبها تحليلاً دقيقاً لقدرة الذهن على اكتساب المعرفة ، بحيث إن جزءاً أساسياً من النشاط الفلسفى يتألف من دراسة مصادر المعرفة البشرية ومناهجها

وحدودها. ولما كانت المعرفة يتم توصيلها إلى الغير وتُسجل عادةً ، فإن هذا بدوره قد يؤدى إلى تحليل لوسائل الإنسان فى الاتصال بغيره، ولا سيما اللغة .

إننا عندما نتفلسف نحاول الإجابة عن الأسئلة التى تطرأ على أذهان الناس جميعاً فى وقت ما ، عن طبيعة الحياة ومعناها وقيمتها. وهكذا فإن موضوع الفلسفة هو طبيعة الوجود ، وطبيعة التجربة ، وأخيراً ، العلاقة التى تربط بين الإنسان وذهنه وبين بقية الكون. فالسعى الفلسفى هو فى أساسه سعى نحو معرفة شاملة عن طبيعة التجربة ومعناها وقيمتها.

ونود أن نختتم هذا الفصل بأحد التعريفات الهامة للفلسفة ، والذى قدمه الفيلسوف الإنجليزى المعاصر برتراند رسل Bertrand Russell (١٨٧٢ - ١٩٧٠) ، فهو يقول :

> "أحب أن أفهم الفلسفة على أنها وسط بين اللاهوت والعلم، فهى تشبه اللاهوت (الدين) فى كونها مؤلفة من تأملات فى موضوعات لم نبلغ فيها بعد علم اليقين ، لكنها كذلك تشبه العلم فى أنها تخاطب العقل البشرى أكثر مما تستند إلى الإرغام ، سواء كان ذلك الإرغام صادراً عن قوة التقاليد أو قوة الوحى".

والعلم - فى رأى برتراند رسل - هو الذى يختص بالعلم اليقين ، أما اللاهوت فاعتماده على صلابة الإيمان ، ومجاله هو الجوانب التى تجاوز حدود المعرفة اليقينية ، على أنك واجد بين اللاهوت والعلم "منطقة حرة" هى الفلسفة ، فتكاد معظم المسائل التى لا يستطيع العلم أن يجيب عنها ، والتى تستثير اهتمام العقول المتأملة أكثر مما يستثيرها أى شىء آخر ، أن تكون من ذلك النوع الذى لا يستطيع العلم أن يجيب عنه ، على أن الإجابات التى أدلى بها رجال اللاهوت فيما مضى عن تلك المسائل ، والتى كانت تبعث

الرضى فى النفوس ، لم تعد تقنعنا كما أقنعت أسلافنا. ومن أمثلة هذه المسائل: ما يلى : أيكون العالَم منقسماً إلى عقل ومادة ؟ وإن كان كذلك ، فما العقل وما المادة؟ هل العقل تابع للمادة أم أنه ينفرد بقوى خاصة به ؟ هل فى الكون وحدة تربط أجزاءه وهدف ينشده ؟ هل يتطور الكون ساعياً نحو غاية معينة؟ أحقاً هنالك فى الطبيعة قوانين ، أم أننا نؤمن بوجود القوانين فى الطبيعة إرضاءً لرغبة فطرية فى النظام ؟ ترى هل يكون الإنسان ، كما يراه عالِم الفلك، قطعة ضئيلة من الكربون المشوب مخلوطاً بماء ، يزحف عاجزاً على كوكب صغير غير ذى خطر؟ أم يكون الإنسان كما رآه هاملت؟ أم لعله مزيج من الجانبين معاً ؟ هل للعيش أسلوب شريف وأسلوب وضيع ، أم أن أساليب العيش كلها عبث لا يختلف فيها أسلوب عن أسلوب ؟ وإن كان هنالك أسلوب من العيش شريف ، فما عناصره ، وكيف لنا أن نحياه ؟ هل لابد للخير أن يكون خالداً لكى يكون جديراً عندنا بالتقدير، أم الخير يقتضى منا السعى وراءه حتى إن كان الكون صائراً إلى فناء محتوم ؟ هل ثمَّة ما يجوز تسميته بالحكمة ، أما أن ما يبدو أمام أعيننا حكمة إن هو إلا حماقة تهذبت إلى الدرجة القصوى من التهذيب ؟

هل عقلى الذى يفكر الآن ويتعجب ويدهش ، ويتخيل ويتصور .. إلخ هو مجرد "مادة" أم خلايا فى الدماغ أم مجموعة من الذرات؟ هل هو مجرد وظيفة من وظائف الجسم أم أنه شىء مختلف عن ذلك أتم الاختلاف ؟ إنى إنسان حى: فما معنى الحياة؟ وما الفارق بينى وبين الكائنات الحية الأخرى؟ إننى - بعد فترة زمنية معينة طالت أم قصرت - سوف أموت : فما معنى الموت ؟ وكيف يكون مصيرى بعد الموت ؟ سأقوم غدًا بأعمال كثيرة ، من هذه الأعمال ما هو خاطىء وما هو صواب ، فما معنى الصواب والخطأ ؟ وما معنى الخير والشر ؟ إنى أرى أناسًا من حولى يتصارعون فى سبيل

الحصول على المال والجاه والشهرة والمجد ... إلخ ، فهل هذه الأمور هى القيم الرفيعة والمثل العليا التى ينبغى علىَّ أن أسعى إلى تحقيقها ؟ أم أن هناك قيمًا أخرى أسمى وأفضل كالمحبة والسلام والعدل والإخاء ؟ أى هذه القيم أجدر بنا أن نسعى إليها؟

وهل معنى هذه الأسئلة أنى قادر على طرح أى سؤال ؟ وهل من الممكن أن أجد الإجابة عن كل سؤال أطرحه ؟ هل من الممكن أن أعرف كل شىء ، أم أن هناك حدودًا لمعرفتى ؟ وما هى حدود هذه المعرفة ؟

العالَم من حولى ملىء بالموضوعات الجميلة سواء أكانت طبيعية أم فنية : فبعض المنازل والمناظر فى مدينتى أو فى مدن أخرى جميلة وبعضها قبيح ، فما الجمال وما القبح ؟ وما هو ذلك الشىء الذى يثير متعتنا حين نستمع إلى قطعة موسيقية أو نقرأ قصيدة من الشعر أو ننظر إلى لوحة فنية ؟ وما الذى نعجب به فى المبانى أو المتاحف أو المعابد والأماكن الأثرية ؟ إنى معجب بغروب الشمس ورؤية القمر وسط السحب ، وبتناسق الزهور وجمال ألوانها ، وبصوت خرير المياه ، فهل كان ممكنًا أن تكون الطبيعة جميلة ما لم تكن هناك عين ترى ، وأذن تسمع ، وذهن يُقَدّر ؟

تلك أسئلة لا نستطيع الجواب عنها فى المعامل. وقد قدمت لنا مذاهب اللاهوت إجابات قطعت فيها برأى حاسم أكثر مما يجوز لإنسان أن يقطع ويحسم ، فكان حسمها ذلك هو نفسه الذى حدا بالعقل الحديث أن ينظر إلى تلك الإجابات بعين الريبة ، ومهمة الفلسفة هى دراسة هذه المسائل ، إن لم نقل إن مهمتها هى الإجابة عنها.

من خلال تعريف الفلسفة بأنها "وسط بين اللاهوت والعلم" ، وهو التعريف السابق الذى قدمه برتراند رسل يتضح أن الفلسفة هى من ناحية لها

علاقة بالعلم ، ومن ناحية أخرى لها علاقة باللاهوت. ولذا نرى لزاماً علينا أن نفرد فصلين لتناول هاتين العلاقتين : علاقة الفلسفة بالعلم – وهو موضوع الفصل التالى – وعلاقة الفلسفة بالدين ، وهو موضوع الفصل الثالث من هذا الكتاب. ولنبدأ الآن بالحديث عن علاقة الفلسفة بالعلم .